الفصل الرابع عشر

دعاء زكريا

دعا زكريا ـ عليه السلام ـ ربه أن يهبه ولداً تَقَرُّ به عينه ، بعد أن رأى ما أكرم به مريم من الخير والرزق :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ .

[آل عمران : ٣٨] .

وكان دعاؤه بصوت خافت ، ذكر فيه ضعفه وكبر سنِّه وعقم امرأته ، وحاجته إلى الولد ليكون خليفته من بعده ، ويرث عنه العلم والحكمة ، ويتولى المهام الموكلة إليه . قال تعالى :

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[1] [مريم : ٢ـ٦] .

فاستجاب الله دعاءه ، وأرسل إليه الملائكة تبشره بغلام وهو يصلي في المحراب . قال تعالى :

---

(١) وهن: ضعف .

﴿ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴾(١) .

[مريم : ٧] .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(٢) [آل عمران : ٣٩] .

وأخذت زكريا الدهشة حين بُشِّر بالولد ، لأنه كان شيخاً كبيراً ، ومن كان مثله لا يولد له ، وكانت امرأته عاقراً لم تلد في سن الشباب ، فكيف تحمل وتلد وهي عجوز عقيم . فسأل : كيف ذلك ؟ وأجيب بأنه هين على الله ، فهو يخلق مايشاء ، وقد خلق زكريا نفسه ولم يكن شيئاً ، قال تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٤٠] .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ .

[مريم : ٨ـ٩] .

ومع ذلك طلب زكريا ـ عليه السلام ـ من الله تعالى أن يجعل له علامة يستدل بها على وجود الولد منه وعلى حمل امرأته ، ويطمئن بها قلبه ، فأجيب إليها .

وكانت العلامة ما دل عليه قوله تعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ .

[آل عمران : ٤١] .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ .

[مريم : ١٠] .

---

(١) لم يسمَّ أحد باسمه من قبل .

(٢) وحصوراً: أي يحبس نفسه عن الشهوات عفةً وزهداً ولا يقرب النساء مع قدرته على ذلك . [صفوة التفاسير ١/ ١٩٩]

أي أن يحبس لسانه عن الكلام ثلاثة أيام بلياليها وهو صحيح سوي من غير مرض ولا علة . وقد قيل : إنه كان يقرأ ويسبّح ، ولكنه لايستطيع أن يخاطب أحداً من الناس إلا بالإشارات التي ترمز إلى ما يريد[1] .

وقد استجاب الله عز وجل دعاء زكريا عليه السلام ، وأصلح له زوجه ، فجعلها تحمل بعد أن كانت عقيماً ، ووهبه الذرية الطيبة لأنه كان يسارع إلى الخيرات ويدعو الله رغبة بما عنده من الخير والثواب ، ورهبة من العقاب والعذاب .

قال تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ .

[الأنبياء : ٨٩ـ٩٠] .

* * *

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٣٦١ـ٣٦٢ ، ٣/ ١١٠ـ١١٣ ، البداية ٢/ ٥٠ ، قصص الأنبياء للثعلبي : ٢٥٣ .